{وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ}

المسلمون والعالم والمسؤوليات المشتركة

عبد الرحمن السالمي *

تتراوح كتب التفسير للآية الكريمة بين الطبري والرازي بين أحد مذهبين.

الأول: اعتبارُ أنّ معنى الذكر الدعوة أو الرسالة أو القرآن، وأنّ العرب (قوم النبي) خَصُّوا به، ولذلك فهم مسؤولون عنه يوم القيامة أمام الله -عزَّ وجل-. **والثاني**: أنّ معنى الذكر إن هو الشرفُ والسُمْعة، وقد اختصَّ اللهُ -سبحانَهُ- به النبيَّ وقومه، وسيكونون مسؤولية أمام الله عن القيام بمقتضيات هذا الشرف. والذكْرُ بالمعنى الأول هو الذي يتكررِ في القرآن الكريم. لكنّ قوم النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يختصُّون به. ذلكٍ أنّ دعوة الإسلام لا تتعلّقُ بالعرب وحدهم، بل بسائر بني البشر: (وما أرسلْناك إلاّ رحمةً للعالمين) في حين أنّ المعنى الثاني للفرد: الشرف والسُمْعة، معروفٌ من الناحية اللّغويّة. والذي قد يُرجِّحُهُ اعتبار النبي وقومه، وليس النبيَّ وحده، مسؤولون. فقد أُعطوا هذا الشرف، وما دام الأمر كذلك فإنّ العرب (قوم النبي) يشتركون معه في تحمُّل الإسلام ودعوته، وفي حمله إلى أمم العالم في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبعد وفاته. وكلما انتشرت دعوة الإسلام انتشر ذكْرُ العرب، وعلتْ سُمعْتُهم وازداد عزُّهُم، وبقدْر العبء والتبرحة يكونُ الجَهدُ، وتكون المسؤولية.

ويستظهرُ الزمخشريُّ مَلْمحاً يتعلَّقُ بالعالَم أو بأمة الدعوة. فالعربُ قومُ النبي، والذين استجابوَا لدعوته، أدركوا الذكْر والشرف، وأدركتْهم رحمةُ الله -سبحانه- بالهداية والتوفيق. ومن هنا تأتي مسؤوليتهم المشتركة مع العالم، فهم أمةُ الإجابة، والعالم كلّه هو أمةُ الدعوة، وبحملِ الإسلام إلى أمة الدعوة تُصبح المسؤولية مشتركة؛ إذ إنّ الرحمة بذلك تنالُ الجميع. ولاشكَّ (في نظر الزمخشري) في أنّ أهل الكتب السماوية عَرفوا هذا الذكْر وتوارثوا أصله، ومن هنا يأتي اشتراكُهُم في المسؤولية: بقبول الدعوة الجديدة/القديمة، وبالإسهام في حملها إلى الوثنيين والذين ما نُزّل عليهم كتابٌ ولا أُرسل إليهم رسولٌ من قبل أو لم تبلُغْهُمُ الدعوة.

والمسؤوليةُ قسمان أو نوعان: مسؤولية التبليغ، ومسؤولية الأمانة والإتّباع والاستمرار في حَمْل الرسالة أو في الوفاء لمقتضياتها.

فالخير والرحمةُ لا يستقلُّ بإدراكهما فردٌ دون فرد أو شعبٌ دون شعب أو أمةٌ دون أمة، أو زمانٌ دون زمان. وذلك لأنّ دعوة الخير ودعوة الرحمة، إنما هما (فطرة الله التي فطر الناسَ عليها).

وما دام الأمْرُ كذلكِ فإنّ قومَ النبي (بالمعنى النَسَبي، وبالمعنى الديني) مسؤوليتهم مزدوجة: هي مسؤولية الفطرة التي يشتركون بها مع غيرهم من بني البشر، ومسؤولية المعرفة والاختصاص، لأنّ بعثة الأنبياء إلى أهل الكتاب وإلى المسلمين أيقظت مقتضيات الفطرة في نفوسهم، وشحذت هممهم، وأبلغتْهم بالفعل أسمى درجات الرفْعة والمجد – وعلى ذلك تترتّب المسؤولية الكبرى والباقية.

إلى أين ينتهي الأمر بالدعوة والمسؤولية؟ القرآن الكريم يقول: وسوف تُسألون. فالأمر مستقبليٌّ، ويتعلّقُ بالذكر نفسه وبمعنييه: الإسلام أو القرآن، والشرف. الشرفُ لم يعد خاصاً بقوم النبيّ، بل صار قاسماً مشتركاً بين كل الذين اعتنقوا دعوة الإسلام. بيد أنّ مضامينَ نداء الفطرة والخير هو قاسَمٌ مشترك بين سائر بني البشر، وعليها ينبغي التلاقي بمقتضى الاشتراك في الفطرة والإنسانية – هذا وإن يكن المسلمون وأهل الكتاب أكبر مسؤولية من غيرهم إذ توافرت لهم إلى دواعي الفطرة الدعوةُ الواعية بالأولية. وهذا معنى قوله -عزَّ وجلّ-: (فاستبقوا الخيراتِ)؛ ذلك لأنّ الخير وبمقتضى الفطرة الإنسانية مشترك بين البشر، وصحيحٌ أنّ المؤمنين أولى به باعتبارهم يعرفون أصْلَهُ الواعي، لكنّ مشتركاته ينبغي أن تكونَ هي الأساس بالنّسبة لهم في اللقاء مع الآخرين. فإذا دعاهم غيرُهم إلى ما فيه خيرٌ ورحمة واستجابة لمعاني دينهم وأخلاقهمْ؛ فينبغي أن يكونوا سراعاً لقبول ذلك والبروز فيه بمقتضى استباق الخيرات. ذلك أنّ المؤمنَ إنما هو خيِّر ويريدُ الخير لنفسه ولسائر بني البشر، ولا يلتقي معهم إلاّ على خير. فالخيراتُ هي القيمُ الإنسانية العامة التي يفوزُ من تشبَّتَ بها، وتمسَّك بمقتضياتها. والفوزُ فوزان: دنيويٌّ وأخروي. وليس صحيحاً أنّ هناك تناقُضاً بين الأمرين بل الأحرى أن يكونَ الفائزُ أخروياً هو الأولى بالفوز في الدنيا، لأنه يثقُ بالله عز وجل، ويضعُ الخيرِ الأسمى نصْب عينيه، ولا يُهمُّه شخصُهُ بقدّر ما تُهمُّهُ دعوةُ الخير، ويُهمُّهُ الفلاحُ وللعالم الأوسَع. ومع الثقة بالله عزّ وجلّ يأتي توفيقُهُ عزَّ وجلّ، وتأتي نُصرته للمؤمنين ليس بأشخاصهم وحسْب، بل وبالخير الذي يحملونه، والإرادة الطيّبة التي تحرّكهم في أفكارهم ونواياهم وأعمالهم.

وبالمعنى المقصود للذكر في الآية الكريمة، وفي القرآن بشكلٍ عام؛ فنحن مسؤولون من جهتين. من جهة التقصير في نُصرة الخير والفلاح والتضامُن في أوساطِنا – ولجهة التقصُير في الإسهام في سائل الخير والفلاح وسائر الوجهات الإيجابية في عالم اليوم. فإذا كان المسلمون يُعانون أو يُعاني بعضُهُم من أوضاعٍ سيئةٍ أو مُزْريةٍ؛ فلا شك أنّ تلك مسؤولية الجميع، ولا يجوزُ أن يحصُل ذلك بين أهل الذكْر. ومن تحصيل الحاصل الاستنتاج أنه إذا كانت أوضاعُ أهل الذكر ليست على ما يُرام، فلن يستطيعوا الإسهامَ في الخير العالمي، والتقدم العالمي، أو نُصرة دعوات ومبادرات السلام والتقدم والنمو. وهكذا فإنّ عبء المسؤولية المترتبِ على عبء الذكر، ليس أمراً متجهِّماً يُشعرُ بالكفاح والتضحية وحسْب؛ بل هو أيضاً ميزة، تضعُ المؤمنين في موقع القيادة، ومن ذاك الموقع تأتي المسؤولية، تُجاه الأقربين وتُجاه الأبعدين. فكما قال رسول الله صلواتُ الله وسلامُه عليه: "ربَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع". وما أبلغ المسلمين هذا الموقع العالميَّ الكبير في

الماضـي غير إسهامات الخير والتقدم وخدمة البشـرية. والذي لا يستطيع إعطاءَ الآخرين، عاجزٌ بالضرورة عن خدْمةِ نفسه، وعن التطلُّع للمستقبل الذي يتجاوزُ أرنبة أنفه!

بيـن المسلمين وبيـن العـالَم أُصـولُ الفطرة والعقـل، ولـهـم وعليهم الـدعوةُ والذكْر. وبين الـدعوة والفطرة يقعُ القصدُ وتقعُ المسؤولية: (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتـل نفسـا بغير نفس أو فسادا في الأرض فكأنما قتل النـاس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ولقد جاءتهم رسلنا بالبيّنات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون).

****

*) رئيس تحرير المجلة.